ميد هوندو..... المخرج المُوريتانى المُناهِض للاستعمار

"لست مثقفاً بالمعنى الكلاسيكي للكلمة.. فأنا لم أدرس في الجامعات ، لكننى امتلك مرارة اللاجىء الأفريقى الذى ترك وطنه قهراً وتذوق لذوعة الاغتراب .. و عشقت السينما باعتبارها وسيلة لاستنطاق العالم بغرض تغييره لا وصفه فقط.. وأفلامي كلها بمثابة حوار مفتوح مع الجمهور يكون فيه المُشاهِد على نفس قدم المساواة معى تماماً ..."

كلمات المخرج الموريتانى الشهير "عبيد محمد هوندو" الشهير بـ "ميد هوندو" الذي حافظ على أفكاره وعلى استقامته الأيديولوجية رغم سنوات الاغتراب، وحفر لنفسه أسلوباً خاصاً يتميز بالرونق والجمال، حيث اتخذ من السينما سبيلاً للصراع الشفيف، حيث زَهد الأضواء وتفرغ فحسب لمشروعه السينمائى القائم على مناهضة الاستعمار ودحضه فى عقر داره. وعلى الرغم من قضاءه أغلب سنوات عمرة فى فرنسا، إلا أنه لم ينفصل عن هويته الافريقية ولم يكف عن انتقاد الاستعمار الفرنسي فى أعماله.. كان يزهو دائماً بجنسيته الموريتانية، ويردد بفخر عبارة "أنا مورتيانى"، كما لو كان يحمى كينونته السمراء من غيوم باردة فرضتها عليه سنوات اللجوء بعيداً عن الوطن.

يعد "هوندو" أحد أكثر المخرجين الموريتانيين موهبة، حيث أحدثت أفلامه ضجة واسعة ليس على نطاق السينما العربية والأفريقية فحسب، وإنما على مستوى السينما العالمية عندما نال كثيراً من الجوائز في المهرجانات الدولية. كرس "هوندو" أعماله لتحليل قضايا الاستغلال الاستعماري والهجرة إلى أوروبا . كما قضى سنواته الأخيرة بالعمل في مجال الدوبلاج الصوتي للأفلام العالمية. كان يحمل فى اعماقه تقديراً لافتاً للسينما المصرية، واعتبرها السينما الأم في القارة الأفريقية، وأبدى رغبته، في أكثر من مناسبة، أن تفتح مصر أستديوهاتها السينمائية أمام السينمائيين الأفارقة، لإنتاج أفلام مشتركة. كذلك كان يخطط لتحقيق مشروعه الكبير المتعلق بعمل فيلم عن قائد الاستقلال الوطني في جزيرة هاييتي "توسان لوفيرتور"، لكن القدر لم يمهله الوقت، وتوفي عن عمر يناهز ٨٢ عاماً بالعاصمة الفرنسية باريس التي قضى فيها الشطر الأكبر من حياته.

مسيرته الأولى وأهم محطاته الفنية

أغلب المتتبعين والمهتمين بالمجال السينمائي في موريتانيا يعتبرون أن أولى إرهاصات وتطورات المشهد السينمائي الموريتاني قد بدأت فى فترة الخمسينات من خلال "البعثات الرحالة" التي قامت بها فرق فرنسية ومصرية على شاشات سينمائية محمولة جابت العديد من البوادي الموريتانية فى محاولة تجسيد ونقل هذا الفن لمجتمع صحراوي بمنأى عن فهم واستقراء مكامن هذه القوة الناعمة. وفى مطلع الستينيات ظهر المخرج السينمائي "همام افال " محاولاً خلق قاعدة بشرية تستوعب أو تقترب في تلك الرحلة من التعمق في فهم الصورة السينمائية وقراءتها، حيث اسهمت جهوده فى خلق جيل من المخرجين الشباب الموهوبين فى موريتانيا، كان من أبرزهم "ميد هوندو"، الذى انتمى إلى حركة السينما الأفريقية الجديدة فيما بعد الكولونيالية التي ظهرت في الستينيات من القرن الماضي.

كان "هوندو" من أبرز أبناء جيله، وهو من مواليد عام ١٩٣٦ في نواكشوط. كان والده سنغالياً، وأمه موريتانية، فيما انحدر أسلافه من السودان، لهذا فهو يتمتع بجذور أثنية متعددة وكان يتحدث العربية بطلاقة، إضافة إلى الإنجليزية والفرنسية. تلقى "هوندو" تعليمه الأول بالرباط، ثم هاجر إلى فرنسا وعمره ٢٥ عاما، حيث تنقل بين مهن عديدة. بدأ حياته طباخاً، ثم هاجر إلى مرسيليا لاكتساب المزيد من المعرفة، في هذا المجال، وهناك اشتغل عاملاً في الميناء، ثم عَمِل في قطف الفواكه من الحقول الفرنسية، قبل أن يجد عملاً في إحدى المطاعم.

يتذكر هيندو سنواته الأولى قائلاً: (لقد كان العمل في المطعم شاقاً، ولكن علاقتي مع بعض الأشخاص الذين عملت معهم كانت هي الامتحان الحقيقي لي، فقد كان رئيسي الذي استأجرني بأقل من الأجر المعتاد، يخجل مني، فأرسلني ركناً قصياً في المطبخ، ولما اكتشف، أنني أضفي نكهة غرائبية خاصة على مؤسسته سمح لي بالظهور العلني).

أتاحت له الأعمال المختلفة التي أمتهنها أن يتعرف على حياة الطبقات العليا والدُنيا من المجتمع الفرنسي عن كثب. وبعد ٦ سنوات من هجرته تلقى دروساً في فن التمثيل المسرحى وبدأ العمل بالتمثيل في إحدى الفرق المسرحية الصغيرة التي أسسها أبناء جزر المارتنيك. وكانت الفرقة متخصصة في تقديم الأعمال المسرحية لمؤلفين أفريقيين، ولكن سرعان ما أدرك "هوندو" أنه من الصعوبة أن يعبر أفريقي داكن البشرة عن نفسه على خشبة المسرح الفرنسي، فألف، مع عدد من أصدقائه من أفريقيا وأمريكا اللاتينية، مجموعة مسرحية لأداء بعض المسرحيات التي كتبها مؤلفون أفرو أمريكيين.

والواقع كان "هوندو" شخصية متعددة المواهب السينمائية فهو :ممثل – سيناريست – مخرج – منتج ، كما عمل في المجال السينمائي منذ البداية في الدبلجة للأفلام الأمريكية وكان معروفاً في أوساط الدبلجة على أنه صوت ممثلين فرنسيين من أصول أفريقية مثل إيدي مورفي ومورغان فريمان وريتشارد برايور. ومن مشاركاته المميزة أيضا في أفلام الرسوم المتحركة، تأديته صوت "رفيقي" في فيلم "ديزني" الشهير "Lion King" والحمار في سلسلة أفلام "Shreck" الشهيرة. واعتبر "هوندو" الدبلجة "مهنة تمثيلية" بامتياز، كما كان يمارسها ليتكسب المال الذى يساعده فى انجاز سينما خاصة به.

اتجه "هوندو" إلى التمثيل وقام بأداء بعض الأدوار في أفلام للمخرجين كوستا غافراس، جون هيوستون، و روبرت أيكر يكو، ثم تحول إلى الإخراج، فقدم فيلمين قصيرين هما «أغنية للجندول» و«جيراني». وفي عام ١٩٦٩ بدأ "هوندو" إخراج فيلمه الروائي الطويل الأول (أوه أيتها

الشمس) / (SOLEIL- O) الذي أنتجه بمساعدة عدد من أصدقائه اعتماداً على المكافآت التي كان يتقاضاها عن التمثيل. ينتمى الفيلم إلى أفلام السيرة الذاتية، إذ يروى "هوندو" خلاله تجربته الشخصية المريرة كلاجىء فى بلاد المهجر، حيث تناول الإحباطات التي يعيشها مهاجر موريتاني في باريس تحت وطأة العنصرية الفرنسية والتهميش والاستبعاد، إلى أن وصل إلى مرحلة الجنون المطلق، كما تعرض الفيلم أيضا إلى موضوع الاضطهاد الطبقي الذي يقع على عاتق العمال الملونين في فرنسا.

تبلورت ملامح الخط السينمائى الخاص به أكثر وأكثر فى فيلمه الثاني الذى حمل عنوان «عمال عبيد. هؤلاء العرب جيرانكم» إنتاج عام (١٩٧٣)، حيث نضجت محاولاته فى البحث عن أسلوب سينمائي جديد مستمد من الثقافة الأفريقية، خاصة وأنه استخدم الأسلوب التعليمي الذي يمزج بين الواقع والأرقام والإحصائيات والمعلومات التسجيلية. وقد حصل هذا الفيلم على جائزة التانيت الذهبي في مهرجان قرطاج السينمائي (١٩٧٤).

في هذا الفيلم واصل "هوندو " معالجة موضوع الاضطهاد الاستعماري، وتناول بالتحليل حياة العرب والزنوج في فرنسا . تعمد "هوندو" فى هذا الفيلم الاعتماد على عُمال حقيقيين كما تبنى أسلوب الارتجال في أداء المشاهد التمثيلية . يقول هوندو: " هدفي هو إخراج فيلم يعكس هموم وقضايا العُمال المهاجرين، فقد رأيت أن أشاركهم معي بدلاً من استخدام الطرائق الإبداعية التقليدية. لا أريد القول إنه عمل جماعي، ولكنه بالأحرى فيلم واقعى قام الناس الذين ساهموا في تحقيقه بتقييم مراحله المختلفة . انه بمثابة تجربة سينمائية تأتى من العالم الثالث وتخاطب سينما العالم الثالث . سينما أجد أنها من الضرورة أن تأتي مختلفة بمضامينها وأشكالها عن السينما الأوروبية.."

طور "هوندو" فيما بعد أسلوبه السينمائى في فيلمه «ويست إنديز» من إنتاج عام (١٩٨٠) الذي كان بمثابة باليه أفريقي، حيث استخدم الرقص والموسيقى والأغاني مع التعليقات الصوتية والرسوم المتحركة داخل ديكور مصنوع لسفينة مركبة بالأستديو على ديكور مصنع قديم، إذ يروي الفيلم قصة العبودية خلال القرون الثلاثة الماضية من خلال سياق درامى جدلي يبرز المتناقضات باستخدام إيقاع خاص مستمد من الإيقاعات الأفريقية التقليدية.

الفيلم مأخوذ عن مسرحية "العبيد" للكاتب "دانييل بوكمان"، التي سبق أن أخرجها "هوندو" للمسرح. وقد اُعتبر أكثر الأفلام الأفريقية طموحاً وأول فيلم موسيقي أفريقي، حيث شُيدت له ديكورات خاصة وشارك فيه عدد كبير من الممثلين الثانويين والراقصين، وبلغت تكلفة إنتاجه مليون و٣٠٠ ألف دولار، وهي ميزانية ضخمة بمقاييس عصره. وكانت بالتعاون بين الحكومة الموريتانية، وهيئة الإذاعة والتلفزيون الجزائرية ومساهمات من السنغال والكاميرون وساحل العاج.

والواقع قضى "هوندو" سبع سنوات في إعداد وتصوير هذا الفيلم مدفوعاً بطموحه لتحقيق عمل ملحمي كبير على غرار أفلام كيروساوا، وفيه يتجاوز كل ما حققه في أفلامه السابقة. إنه يبدو أقل اهتماماً بالتجريب الشكلي وأكثر

امتلاكاً لعناصر الأسلوب مع التمكن التام من قيادة الممثلين وإدارة التصوير مستعيناً بالمئات من الممثلين الثانويين، حيث نجح "هوندو" فى إدارة أحداث فيلمه وفقاً لخط قصصي أكثر سلاسة وإن كان قد أخضعه ببراعة لأسلوبه الجدلي مع الاهتمام في نفس الوقت بكافة عناصر ومكونات الصورة.

فيلم "ساراوونيا" .. ملحمة "هوندو" السينمائية عن المرأة الأفريقية

فى الثمانينيات أعلنت السينما الأفريقية التمرد على صورتها القديمة التى كرسها النقاد الفرنسيون باعتبارها سينما الفولكلور والفقر، وأتم "هوندو" أهم وأفضل أفلامه وأكثرها كمالاً واكتمالاً، وهو فيلم "ساراوونيا" الذى حصل على الجائزة الذهبية فى مهرجان موسكو السينمائى عام ١٩٨٧.

جرى عرض الفيلم في سبع دول أفريقية وحقق نجاحا هائلاً، والواقع أراد "هوندو" بهذا العمل المتميز أن يثبت أن الدول الأفريقية الفقيرة تستطيع إذا أرادت، أن تنتج أفلاما سينمائية كبيرة. وأنتج هذا الفيلم بتمويل من وزارة الثقافة في بوركينا فاسو، وتكلف إنتاجه ٣ ملايين دولار. ويروى "هوندو" بعض الكواليس عن فيلمه قائلا : "ساراونيا" كان اصعب فيلم اقوم بعمله في حياتي، إستغرق مني عشر سنوات من المحاولات المضنية، يمكن ان أقول بأني نجوت من هذا الفيلم بأعجوبة، فقد تسبب لي الجهد المضني والقلق بسكتتين قلبيتين أثناء عمله"

تناول الفيلم قصة الغزو الأوروبي الاستعماري للقارة الأفريقية في أواخر القرن التاسع عشر، مُركزاً على قصة صمود «ساراوونيا» ملكة قبائل الأزناس في غرب أفريقيا التي قاومت ببسالة مع جيشها، الغزاة الفرنسيين وانتصرت عليهم، وتحولت قصة صمودها فيما بعد إلى أسطورة لا تزال قائمة حتى اليوم.

استغرقت كتابة سيناريو الفيلم فترة طويلة سبقتها شهور من البحث المضني في إرشيف وزارة المستعمرات الفرنسية والبريطانية عن حملة القائد الفرنسى "فوليه" وهجومه على مملكة "ساراوونيا" ومقاومتها للفرنسيين. بعد ذلك التقي "هوندو" بالروائي النيجري عبد الله مامانِي، الذي كتب رواية عن ساراوونيا، وعملا سوياً على كتابة نسخ كثيرة من السيناريو، لكن كان ينقصها القوة البصرية، لذلك سعيا معاً إلى جمع المواد الشفهية عن هذه الحكاية المعروفة في النيجر ومالي ، حتى جرى إتمام النسخة النهائية من السيناريو.

يبدأ الفيلم بمشهد بانورامى هائل يُتابع صفوف الجنود الافارقة في الجيش الاستعماري الفرنسي خلال تقدمهم في الصحراء. والمشهد هو مشهد التتر ونزول أسماء المشاركين فى العمل، لكن جرى تنفيذه وتصويره بجمالية شديدة حيث تتطاير الرمال فى الخلفية بفعل الريح على جانبي الطريق في حركة ناعمة، وتتعامد عليها أشعة الشمس، فتتشكل انعكاسات ذهبية رائعة تمزج بين اللونين الأحمر القاني والأصفر.

يظهر بعد ذلك ملك قبائل الأزناس، فى مشهد البداية، وهو يُكلِف أحد أتباعه من حكماء المملكة، بتعليم ابنته «ساراوونيا» فنون الحرب والقتال والسحر والعلاج حسب الموروث الأفريقي، وبعد سنوات نرى ساراوونيا وهي تحتفل مع شعبها بانتصارها على جيش مملكة سوكوتو المجاورة، التي قام ملكها بغزو مملكة ساراوونيا.

فى تلك الأثناء، تتوالى لقطات مذهلة للغزاة الاستعماريين وهم ينتشرون في غرب أفريقيا، مستعينين بجنود مرتزقة بعد إغرائهم باقتسام الغنائم والنساء زوجات رجال القبائل المهزومين، بينما يستخدم "هوندو" الحركة الطويلة للكاميرا بدلاً من الانتقال من لقطة إلى أخرى، فيحول اللقطة إلى مشهد كامل مكون من لقطات متجاورة يجمعها المكان والزمان. كما يستخدم الأسلوب التعليمي الذي اشتهر به، كأن يقطع مثلاً، على خارطة أفريقيا بينما تشير الأسهم الحمراء إلى خطوط الغزو الأوروبي، ثم فجأة تغمر الخارطة بالدم الأحمر وتتحول إلى ما يشبه القلب المنفطر، مع توظيف عاملى الإسقاط والترميز مع استنباط الدلالات الخاصة بظلال الحركة والصورة معاً.

يربط "هوندو" بين أحداث فيلمه بواسطة توظيف دور "الراوي" الذي يعلق على الأحداث من خارج الصورة ويمثل وجهة نظر المخرج نفسه، حيث رغب "هوندو" في أن يجعل فيلمه بمثابة إعادة قراءة للتاريخ، موجهاً دعوة إلى جمهوره، كى يتأمل الماضي بهدف استلهام دروسه. وفي الثلث الأخير من الفيلم، يصبح التعليق على الأحداث بصوت قائد الجيش الفرنسي الكولونيل "فوليه" الذي يصف حالة التخبط والانهيار التي وصل إليها جيشه مع بروز التناقضات في داخله، وهكذا ترتبط جدلية الصورة بجدلية الصوت.

يرتكز الفيلم أيضاً على عدة محاور في بنائه الدرامي، من أهمها إبراز دور المرأة في التاريخ الأفريقي ونضوج الوعي لدى النساء اللاتي اتخذهن الضباط الفرنسيون أدوات للهو والتسلية والمتعة، حتى يصلن بعد ذلك إلى إرسال إحداهن لتحذير "ساراوونيا" من الغزو المنتظر. وفي نهاية الفيلم، تقوم امرأة منهن، بتوجيه الضربة الأولى، وتنجح فى طعن الضابط الفرنسي بالسكين، وبذلك تفتح الطريق أمام تمرد الجنود الأفارقة الذين يطلقون النار على باقي الضباط، ويقتلون القائد الطاغية «فوليه» الذي يصل به جنونه وشبقه للسلطة، إلى درجة رفض أوامر قيادته ورغبته الخاصة في إقامة إمبراطورية مستقلة في أفريقيا الغربية.

ومن أهم مشاهد الفيلم، عندما تستعد "ساراوونيا" مع رجالها للدفاع عن قصرها المقام على شكل قلعة أفريقية قديمة، ومع اقتراب الفرنسيين وعملائهم، ثم بدء إطلاق قذائف المدفعية باتجاه القصر، تنهار بعض الجدران، ويبدأ الانسحاب المنظم لرجال "ساراوونيا" من القصر إلى الغابة المجاورة. وعندما يدخل الغزاة، يجدون القلعة خالية تماماً، فيجن جنونهم. وفي الغابة يتصدى جيش "ساراوونيا" للغزاة، ويهزمون الفرنسيين هزيمة منكرة.. فى هذا المشهد استخدم "هوندو" زوايا التصوير المنخفضة لتصوير "ساراوونيا" وسط جنودها، وهي زوايا تبرز العظمة والقوة والهيبة.

وفي اللقطة الأخيرة تطل الكاميرا من زاوية مرتفعة على جيش "ساراوونيا" وهو في طريقه إلى داخل القلعة، ويفاجأ المتفرج بظهور أعداد من الشباب والرجال في مؤخرة الجيش يرتدون الملابس العصرية. وهو استخدام مقصود للربط بين الماضي والحاضر، كما ينتقل "هوندو" من الموسيقى الأفريقية التقليدية إلى الموسيقى الحديثة في نفس المشهد، تأكيدا على الاستمرارية ومواصلة الدفاع عن الأرض.

إعداد: شرين ماهر